

مقدمة في دراسة كرامات المتصوفين المغاربة وخورقهم في القرنين السابع والثامن الهجريين

د. ناجح جميل الصافي

الكلية الإسلامية الجامعة / النجف الاشرف

الملخص

تتوارد في أذهاننا عند قراءة كرامات المتصوفين المغاربة وخورقهم خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، هواجس تثير في احساسنا اشكالات تبدو لأول وهلة افتراضية، ثم لم تلبث ان تلح علينا لتجعلنا في دائرة الشكوك ولنقرر في نهاية المطاف أنها لا تصدر عن الواقع العملي الملموس ، فهي في إطار التخيلات التي تتأى عن منطق عقلائي، ولا يقع لها ان تشبه بمعجزات الأنبياء والرسل وفضائلهم ، و((لا تقع لولي ، لتدل على صدق عبادته وعلو مكانته، وإلا فهي خذلان من الشيطان)).

ويعلل ابو نصر السراج الطوسي المتوفى (٣٧٨هـ)، الكرامات بأنها لطائف في علوم مشكلة في فهم الفقهاء والعلماء ، فهؤلاء المتصوفة متخصصون لحلّ العقد ، التي تشكل على هؤلاء، والظاهر ان مجادلة خصوم التصوف والدفاع عن المتصوفة، وتأسيس أفاويلهم على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمنقولات عن الصحابة والتابعين لا تصمد ، أمام التدقيق والتمحيص في النصوص التي أحيل إليها، وربما عمد بعض كبار الصوفيين إلى هذا التأسيس بغية التوفيق بين منهج المتصوفة ، ومنهج الفقهاء ، الذين يستنبطون الاحكام من النصوص الدينية وبخاصة من القرآن .

بيد أن ما جاء به بعض المتصوفين مما يستدل على الخوارق وهي تدخل تحت النظر الشرعي ، وأن مخالفتها للشرعية ، دليل على بطلانها في نفسها ، لأنها قد تكون كرامات في الظاهر ، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك بل هي من أعمال الشيطان ، وهكذا فإن معيار التمييز هو الشرعية.

**Introduction to the study of the
dignity of the mystical speculative
and paranormal in the seventh
and eighth centuries A.H.**

Asst .Prof. Dr. Najih Jajih Jameel Al-Safi

Islamic University College

Abstract

There are some suppositive doubts about the extraordinary and esteem of Sufis during the seventh and eighth centuries. These doubts seem virtual from the first point. At the end we decide that these extraordinary never come from the concrete scientific reality.

These are all imaginative things. They should not like the miracles of Prophets and Messengers and their virtues. It would not happen with loyal man to show his worshipping, if it happens, it is forsaking of Satan.

Abo Al-Nassir Al-Siraq Al-Toosi, died at 378A.H., identifies that these esteems are gracious of science forming according to the understanding of scientists and legists. Those Sufis are specialized in solving problems. It is obvious that negotiating with ones who against Sufism and defending Sufis no longer stand in front of checking and searching the real contexts. Most of the Sufis Checking in order to cooperate between the methods of Sufis and Legists who deduce the rules from the religious contexts and especially from Quran.

Most of the Sufis consider these extraordinary real, but are against Islam, so they apparently look charities but they are not in real because they belong to Satan. So, the standard of outstanding is Sharia.

توارد في أذهاننا عند قراءة كرامات المتصوفين المغاربة وخورقهم خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، هواجس تثير في إحساسنا إشكالات تبدو لأول وهلة افتراضية، ثم لم تلبث أن تلح علينا لتجعلنا في دائرة الشكوك ولنقرر في نهاية المطاف أنها لا تصدر عن الواقع العملي الملموس، فهي في إطار التخيلات التي تتأى عن منطق عقلاني، ولا يقع لها أن تشبه بمعجزات الأنبياء والرسل وفضائلهم^(١)، و((لا تقع لولي، لتدل على صدق عبادته وعلو مكانته، وإلا فهي خذلان من الشيطان))^(٢).

ويعل أبو نصر السراج الطوسي المتوفى (٣٧٨هـ)، الكرامات بأنها لطائف في علوم مشكلة على فهوم الفقهاء والعلماء، فهؤلاء المتصوفة متخصصون لحل العقد، التي تشكل على هؤلاء^(٣)، والظاهر أن مجادلة خصوم التصوف والدفاع عن المتصوفة، وتأسيس أقاويلهم على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمنقولات عن الصحابة والتابعين لا تصمد، أمام التدقيق والتمحيص في النصوص التي أحيل إليها، وربما عمد بعض كبار الصوفية إلى هذا التأسيس بغية التوفيق بين منهج المتصوفة، ومنهج الفقهاء، الذين يستنبطون الأحكام من النصوص الدينية وبخاصة من القرآن^(٤).

بيد أن ما جاء به بعض المتصوفين مما يستدل على الخوارق وهي تدخل تحت النظر الشرعي، وأن مخالفتها للشريعة، دليل على بطلانها في نفسها، لأنها قد تكون كرامات في الظاهر، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك بل هي من أعمال الشيطان، وهكذا فإن معيار التمييز هو الشريعة^(٥)، وهل من الشريعة، ما يجد المتصوف مما يشكل عليه، من المسائل العلمية، فينظر إلى جهة، من جهات بيته، فيجدها مكتوبة في الجدار^(٦)؟ أو أن يقول لأصحابه: ((أنا القطب)) في أحواله مما ينظر في أمره عجا في إجابة الدعاء، بنزول المطر واختصاصه بمكان دون آخر^(٧). وآخر شكا الناس إليه، احتباس المطر، فرمى بشاشيته وظهر بشعره الأبيض ونظر وقال: ((يا مولاي هؤلاء السادة يطلبون من هذا العبد المطر ما قدرني أنا حتى يطلب مني المطر؟ ثم بكى فأنزل الله المطر))^(٨).

أو يرى رب العزة فيقول له: ((سل حاجتك))^(٩) ، أو يخاطب مرديبه: ((ما لهؤلاء ينكرون الكرامة))، ثم يعقب: ((لو كنت قرب البحر، لأريتهم المشي على الماء والطير في الهواء))^(١٠).

وكان للشيخ أبي يعزى يلنور بن عبد الله بن ميمون المتوفى سنة ٥٧٢هـ^(١١)، شيخ من مشاهير الأولياء وهو ((من يطير في الهواء))^(١٢) أو أن متصوفاً صعد إلى السماء، وراح يقلب النجوم واحداً بعد واحد^(١٣)، كما كان الشيخ أبو جعفر محمد بن يوسف الصنهاجي^(١٤) وهو يروي عن شيخ من شيوخه، وهو ينادي من مكانه فيجيبه أحدهم: (نعم) وبينهما خمسة أيام^(١٥).

وفي كل ذلك وغيره فهل لنا أن نصدق ما جاء به محمد الطيب نقلاً عن بعض المتصوفين، من أن الخوارق، ليست ممكنة الوقوع فحسب، بل هي واقعة فعلاً، وأنها ليست نادرة الوجود بل كثيرة، مستدلاً على ذلك بمرجعية تاريخية، تجعل الخوارق ضاربة في القدم، موصولة بتاريخ الأنبياء وما جرى على أيديهم، من كرامات بالاستناد إلى مرجعية واقعية، تحيل إلى ما انخرق للأولياء من العادات^(١٦)، وهل يجعل هؤلاء المتصوفون من أنفسهم استمراراً لفضائل الأنبياء؟ كما لنا أن نتساءل عن فائدة الخوارق التي يدعيها هؤلاء المتصوفون، هل أنها تساعد على تقوية اليقين عندهم، بما يؤكدون، أنها فتح رباني، وتأييد إلهي، أو هي آية من آيات الله، يمن بها على أوليائه، لكي تطمئن قلوبهم وتعاونهم وتعزدهم وتشد من أزهرهم، لأنها خارجة عن نطاق الفائدة الدنيوية بل هي تعبدية أخروية مقصودة وتبعية متلبسة بها^(١٧).

ولا مندوحة من التحقق من هذه المرويات، ونقدها وتمحيصها وإخضاعها لإعمال العقل، لكي تكشف عن نزعتها الوثوقية إزاء منقولات الصوفيين وأخبارهم، كما أنه ليس هناك ما يمنعنا من أن نقطع بالقول بالخوارق الشيطانية والبدع الصوفية الانحرافية، مما نسمعه من متصوف أخذ حصى من الأرض ثم قال لجليسه إن شئت أن أجعلها ذهباً فعلت، فإذا هي في يده ذهباً، فألقاها إلى جليسه وقال: ((أنفقها أنت، فإنني سعيت لأوسع عليك الرزق))^(١٨) ، وكما نقل عن عبد القادر الكيلاني حينما

مقدمة فى دراسة كرامات المتصوفين المغاربة وخورقهم
عطش عطشا شديدا، فإذا سحابة قد أقبلت وأمطرت عليه شبه الرذاذ حتى شرب، ثم
نودي من سحابة: يا فلان: أنا ريك، وقد أحللت لك المحرمات، ثم اضمحلت
السحابة^(١٩).

ولعل الأفكار الأكثر إثارة هي أن يجعلوا الخوارق الصوفية واقعة تحت النظر
الشرعي، وإسباغ المشروعية الدينية عليها، والدعوة إلى أحكام وقوانين تضبطها،
فكيف يمكن تكيف "انقلاب الماء لبنا" و"الحجر زهبا؟" و"إنزال الطعام من
السماء"؟ و"رؤية المتصوف للمستقبل مكتوبا في الهواء؟" و"قيام رسول الله ، بإلباس
الخرقة لأحد المتصوفين؟"^(٢٠)، و"أن أحدهم يطير في الهواء ويمشي على الماء، وإذا
سمع المتصوف موعظة يصيح صيحة يبقى أثرها في الهواء" أو قول أحدهم: "لو كانوا
معي لأريتهم كيف أطيروا في الهواء وأمشي على الماء؟". وأن جامع تونس ((ليس فيه
قنديل فأضاء من متصوف شهير، حتى صلى وخرج وعابنه الناس))^(٢١)، نقول: هل
يمكن تأصيل هذه الكرامات والخوارق، لتكون جزءا من العقيدة!!؟

ولا يعوق تمادي متصوف المغرب "ابن حرزهم أبو الحسن علي بن إسماعيل
بن محمد بن عبد الله المتوفى ٥٦١هـ^(٢٢)، إذ قال له رجل: إني راكب البارحة شمعتين
مشعولتين، واحدة بعدوة الأندلسيين^(٢٣)، والأخرى بعدوة القرويين^(٢٤)، والتي بعدوة
الأندلسيين أكثر ضياء من الأخرى، فقال أبو الحسن: أما التي بعدوة الأندلسيين فهو
الفقيه "أبو خرز"^(٢٥)، وأما التي بعدوة القرويين، فأنا ، وإنما كنت أقلّ ضياءً، لكثرة
مزاحي مع الناس"^(٢٦).

وهناك ما يجعل قول متصوف من مثال، أبي مدين شعيب بن حسين
الأنصاري^(٢٧)، وهو شيخ المتصوف الكبير ابن عربي، مثيرا لحيرة العقل ولبلية في
الأذهان، حينما دخل عليه رجل في مجلسه، فقال للحاضرين: هذا أخ من إخواني،
صلى البارحة العشاء الآخرة في مكة والطائف وسرى ليلته فطلع عليه، الفجر عندنا
بمدينة فاس، فقالت المتصوفة الأندلسية فاطمة^(٢٨)، التي حضرت المجلس: فصلينا
معه الصبح، فذبح له أبو مدين كبشا لضيفته^(٢٩).

ويورد، بأنّ قنفذ رواية أكثر وضوحا فيما جاء في قول أبي محمد عبد الخالق التونسي^(٣٠)، إنه سمع برجل يسمى "موسى" وأنه يطير في الهواء ويمشي على الماء، وكان موسى هذا صلّى الصبح في بغداد، وقدم مكة فوجدهم في صلاة الصبح، فأعاد معهم الصلاة، وأتى بيت المقدس، فوجدهم في الظهر فصلّى معهم، وقال: ثم عدنا إلى مكة صباحا، فقال أبو مدين: أما أعادتكم الصلاة بمكة، فالصلاة بمكة، عين اليقين، وببغداد، علم اليقين، وعين اليقين، أولى من علم اليقين، وأما الأخرى بمكة، أم القرى وما صلى بالأمهات، فلا يعاد في البنات، ففنعوا بالجواب وانصرفوا"^(٣١).

وعلينا أن نقرر، أن الأمور التي في حكم الخوارق لا يمكن أن تطرد أن تصير حكما يُبنى عليه، بسبب أنّها تختص بقوم بعينهم، فإذا اختصت لم تجر على غيرهم، فهؤلاء المتصوفون أصحاب الخوارق لا يمكن أن يكون حكمهم مختصا، وإنّما يردون إلى أحكام أهل العوائد الظاهرة، وعندئذ سيقبلهم الصوفي المرّي في صفوف مرّديه وتلامذته.

إنّ قول أبي مدين: "هذا أخ من أخواني" مشيرا إلى موسى وهو من أصحاب الخوارق قد أحله، أبو مدين، وطلبه من بين مرّديه بسبب اختصاصه بهذه الخوارق، التي يتعذر أن تصبح حكما يسري على الجميع، وإنّما تختص بهؤلاء المتصوفين، الذين يصدقونه حتى أنّ المتصوفة فاطمة التي صلّت معه انبرت إلى القول: إنّ مدين أكرم وفادته.

ويقرر الشاطبي: "أنّ من تصير له خوارق العادة عادة فإن الحكم عليه يتنزل على مقتضى عادته الجارية المطردة الدائمة، بشرط أن تصير العادة الأولى الزائلة لا ترجع إلا بخارقة أخرى"^(٣٢).

ومن المرجح هنا، أنّ الشاطبي كان يحول إيجاد المسوغ الشرعي لبعض أعمال المتصوفة، التي تظهر منافية للشرع والعقل، ففي عصره كان هؤلاء المتصوفون يخرجون للحج بغير زاد، فيسوغه بأنّ يتنزل عليه الزاد من السماء، أو يخرج له من الأرض بخوارق العادات، وهذه هي أسباب جارية يعرفها المتصوفة، وصارت لهم عادة.

مقدمة في دراسة كرامات المتصوفين المغاربة وخورقهم
بيد أنّ أبا طالب المكي كان يتبرّم من بعض المتصوفة، أصحاب الشطحات الذين عدلوا عن الكتاب والسنة، وقد وصفهم بقوله: "... أو صوفي شاط تائه غلط، يجاوز بك الكتاب والسنة، لا يباليهما ويخالف بقوله الأئمة لا يتحاشاها، فيجيبك، بالظن والوسواس والحدس والتمويه، ويمحو الكون والمكان، ويسقط العلم والأحكام، ويذهب الأسماء والرسوم، وهؤلاء تائهون في مفازة التيه لم يقفوا على الحجة"^(٣٣).

يمضي أبو طالب موضحاً، أنّ المتصوف إذا ابتدأ بالتعبّد والتقوى والحال، شغل به عن العلم والسنن، فخرج إما شاطحاً أو غالطاً لجهله بالأصول والسنن"^(٣٤).

أمّا عبد الكريم القشيري (ت ٤٦٥هـ) فيشير من طرف خفي، إلى ما كان يحيط بالمتصوفين الأوائل من الشبهات التي حاقت بطريقتهم، والأدران التي علقت بها إذ يقول: "أشفقت على هذه القلوب، أن تحسب أنّ هذا الأمر على هذه الجملة، بنى قواعده، وعلى هذا النحو سار سلفه"^(٣٥).

ويغلب على الظن أنّ الشبهات والأدران العالقة بطرائق المتصوفين إنما تتمثل بالخورق والشطح وبألفاظ تخالف الشرع مثل قولهم: "أنا الحق"^(٣٦) وسبحاني ما أعظم شاني"^(٣٧) و"أنا النقطة التي تحت الباء"^(٣٨)، و"أنتم وما تعبدون تحت قدمي"^(٣٩)، والقول بالهين اثنين: "تور وظلمة، وخير وشر، وإله كامل وإله ناقص"^(٤٠).

والظاهر أنّ هذه العجائب من المكاشفة والحديث يخفيان الأمور والخورق التي يجهر بها المتصوفون، قد أثارت مشاعر المغاربة فقد ذكر ابن قنفذ، أنّ أبا عمران موسى بن بدران الحلاج، الذي شاعت عنه العجائب، وخرج خائفاً، وفرّ من مدينة فاس، وانتهى إلى مدينة بجاية"^(٤١)، وفي بجاية التقى بالمتصوف أبي مدين، شعيب وهو من أصحابه، وقد استضافه الأخير، وقال له: علي بالطعام عليك العسل، فأمر أبو عمران بإناء فأخذها وجعلها خارج البيت فقال له أبو مدين: "أعطني ثوبك، فناوله إياه، فخرج وغطى الإناء ثم عاد بعد برهة إلى ركن الزاوية، فصلّى ركعتين، ثم رجع وأدخل الإناء وهو مملوء بالعسل الأبيض..!! فأكل الحاضرون، وأكلوا منه خمسة وعشرين يوماً، ولم ينقص!! وخاف أن يكون معلوماً، فتصدقوا به"^(٤٢).

وينقل ابن الزيات التادلي، ما قيل عن أبي موسى عمران بأنه من الأفراد "الطيارين في الهواء"، وأنّ أبا مدين شعيب، سمع عنه: "المشي على الماء"^(٤٣).

هل لنا أن نشكك فيما جاء به أبو مدين، وهو الموصوف بالفضل والمبسوط بالعلم والمقبوض بالمراقبة، ومقام التوكل وكثير الالتفات"^(٤٤)، وهو القائل "الملتفت إلى الكرامات، كعابد الأوثان" فماذا ينبغي علينا، أن نشعر بشيء من المصادقية بهذه الكرامات؟ وهل هذه الكرامات التي هي ضرب من خوارق العادات لهؤلاء الأولياء، وما الفرق بينها وبين معجزات الأنبياء، أهو اقتران المعجزات بقصد التحري، وخلو الكرامات من هذا القصد^(٤٥)؟.

إنّ ما سعى إليه بعض الفقهاء، بالقضاء على الشكوك، التي تحوم حول المتصوفين وخوارقهم، والأحكام المسبقة التي سلطها عليهم المتشددون في أحكام الشريعة إلى تأسيس "فقه" يضبط تلك الخوارق والكرامات، وهو هاجسهم الذي يهيمن على تفكيرهم، بردها إلى قواعد شرعية منضبطة جلية^(٤٦)، أو أنّ الخوارق والكرامات هذه، هي من باب المباحث الاستطرادية، التي لا ترتبط رأساً بجوهر المسائل المطروقة، ولكن ما العلاقة بين البحث في أصول التشريع وكلياته، ومسائل الزهد والتصوف والخوارق والكرامات^(٤٧)؟.

ولعل بعض الخوارق، قد أجهضت لاعتبارها من المحرمات، بما جاء عن عبد القادر الكيلاني، الفقيه والمحدث والواعظ والصوفي، وكان من علو منزلته العلمية، حضور العلماء والفقهاء والخلفاء والأمراء مجالس وعظه من جميع أنحاء العالم الإسلامي، نقول أن تروى عنه خوارق ومكاشفات لا يمكن اعتبارها إلا من المحرمات، حتى سئل يوماً عنها، فتبرأ منها وقال: إنها أعمال شيطانية^(٤٨).

ونقرأ أنّ بعضهم ينكرون كرامات الأولياء وخوارقهم، يعزونها إلى اختلال في عقولهم، فذكر ابن الزيات، التادلي: ((أنّ علي بن عيسى بن داود، الفقيه، قد أنكر عليه بعض العمال كراماته، فاشتد عليه، فجمع خلقاً كثيراً على الساحل، فحمد الله وتشهد، ثم دعا على العامل، فلما فرغ قال لهم: ابعثوا من يأتيكم بخير هذا العامل، فإنني لا أشك أنّ الله قد أجاب فيه الدعاء، فذهبت جماعة، يتعرفون خبره، فوجدوه على حاله))^(٤٩).

مقدمة في دراسة كرامات المتصوفين المغاربة وخورقهم

كما هزئ بعضهم بأقوال أبي عبد الله محمد إبراهيم الأنصاري وهو من كبار تلامذة أبي مدين شعيب، فقد روى عنه قوله: ((كنت ليلة ببجاية، وكان معي أبو علي منصور الملياني، فقمنا إلى وردنا، في ليلة مقمرة، فسمعت حساً شديداً، كحس وحش فار أو طائر طار، بانزعاج شديد، ثم استبان لي شخص على ماء البحر، فرأيتَه قائماً يصلّي، فلم أرد أن أنبّه عليه أبا علي، فقال لي أبو علي: أترى ما أرى؟ فقلت له: رأيتَه حين انزعج، فأردت ستره عنك، فقال لي: أعرفه. ورأيتَه يحضر معنا مجلس الشيخ أبي مدين))^(٥٠). وقوله: أن الله عبداً يمرّون بين النجوم كما يمرّ الإنسان بين الجمال إذا بركت في الرحاب، وإن الله عبداً طيارين في الهواء إلى أن يدخلوا، لحج البحر فيصلّون فيها ثم يرجعون))^(٥١).

ولا شك في أنّ هذه التخيلات التي لا تراهن على العقل، لا يمكن تسويغها، وهي منحى خطيرٌ في التفكير الذي يكرس عقلية توكالية سلبية تعيش في الأوهام، وتعرض عن واقع الحياة وسنن الكون، لتبقى عالمة على الغيب^(٥٢)، وتكشف العناصر اللامعقولة في فكر هؤلاء المتصوفين، الذين انحدروا إلى هذه المزالق، وهذه التسويغات المتهافئة لخورقهم وشطحاتهم ومشاهدتهم ومكاشفاتهم، إنما يكشفون عن بنية ذهنية ترفض النقد وتسلك في التحذير منه مسلك الترهيب من هول الخاتمة وسوء المصير.

وهكذا فإننا نستريب لما ذكره بعض المتصوفين، من أنّ الاستدلال على صدق الكرامة، يقترن بصحة الولاية، فكيف لنا أن نستدل على هذه الأخيرة، فقد يظهر أصحاب الخوارق أمام مرديهم في الطاعة إليهم، وبعضهم يتزيّا بزّي المجانين، أو بزّي من يُحتقر أو بزّي الصالحين، على اختلاف آرائهم ومقاصدهم.

ولعل من غرابة أطوارهم أنّ هؤلاء، يعلمون بولايتهم ويعلم غيرهم بها ومنهم من يعلم به ولا يعلم هو بنفسه، والعالمون بولايتهم منهم من يكتمها جهد استطاعته، ومنهم من يصرّح بها^(٥٣)، فنقرأ عن الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم^(٥٤)، وقد سجّنه سلطان مراکش، فقال لتلامذته: لن ألبث في السجن. فقالوا له: سبحان الله، أسكت،

وهل سجت إلا على هذه الأحوال؟ فقال لهم: إنَّ الشيخ، أبا يعزى يلنور بن عبد الله بن ميمون^(٥٥) ها هو ذاك ينظرني ولا يتركني. وبينهما مسيرة خمسة أيام^(٥٦)، وهل لنا أن نعقل ما صرَّح به لتلامذته، وكانوا طلبوا منه السكوت، وأنَّ سجنه كان بسبب ما صرَّح به.

ولا ريب في أنَّ هذه الخوارق والغيبات، لا يستدل منها على الولاية كما يذكر ابن قنفذ، لاحتمال أن تكون من الشيطان^(٥٧)، وإذا ادعت الولاية لمن ليس بولي أو ادعاها هو لنفسه وأظهر خارقة من خوارق العادات، فهي من باب الشعوذة لا من باب الكرامة^(٥٨).

ولا يجد أحدهم مبالغة في القول، أن هناك مقارنة حقيقية بين هذه الخوارق والبدع التي تحدث من غير مثال، سواء كان الأمر المحدث محموداً أم مذموماً^(٥٩). وهي مما لا أصل لها في الشريعة، وما شاع في بلاد الأندلس، والمغرب خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، من البدع والشبهات والانحرافات، هي بدع التصوف الباطل التي يمثلها كبار متصوفي المغرب، ومنهم الشيخ أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري^(٦٠)، والشيخ ابن يعزى يلنور بن عبد الله بن ميمون^(٦١)، والشيخ أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي^(٦٢)، والشيخ أبو العباس حمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابن العريف^(٦٣)، وغيرهم ممن حذا حذوهم وجرى على طريقتهم ومسلكهم.

وفي هذا السياق، لنا أن نتساءل، ما مدى السكينة التي بحث عنها أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ/١١١١م) الذي تركت آراؤه في التصوف أكبر الأثر في متصوفي المغرب، وحينما نهض بجعل التصوف مقبولاً بالقضاء على الشكوك والأحكام المسبقة التي كانت تحوم حوله، وفي كتابه: "المنقذ من الضلال" وصف تطور حياته العقلية والروحية والانتقال إلى إتباع طريقة الصوفية بقوله: "إني علمت يقيناً، أن الصوفية، هم السالكون لطريق الله تعالى، خاصة وان سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق"^(٦٤).

مقدمة في دراسة كرامات المتصوفين المغاربة وخوارقهم
ولكن ألم يقل الغزالي ذلك، بعد أن فقد الثقة بجميع طرق المعرفة الواعية،
وهي: (التقليد والحسّ والعقل، فلم يبق له إلا سبيل طلب اليقين !! الذي فيه تبتدئ
المكاشفات والمشاهدات، على حد تعبيره، فيشاهد الصوفي، الملائكة وأرواح الأنبياء
ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور
والأمثال إلى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول (حلول الله في المتصوف) وطائفة
الاتحاد (اتحاد المتصوف بالله) وطائفة الوصول إلى الله^(٦٥).

أليس ما يردده متصوفو المغرب، من الخوارق، هو صدى لخطاب الغزالي
التحذيري المتشدد بأن إنكار الخوارق والكرامات هو ما يؤدي إلى إنكار الأنبياء؟ كما
لا تقتصر تحذيراته وخطبه بوصف منكري طرق الصوفية بالمتحذلقين من العلماء
على أهل المغرب بل حتى أن أشد الفقهاء، الحنابلة عداً للمتصوفة من أهل
المشرق أمثال أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) ونقي
الدين احمد الحرّاني بن تيمية (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) وشمس الدين أبو عبد الله محمد
بن بكر بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) يقرون له أفكاره، وهو حجة في مسائل تهذيب
الأخلاق وتأديب النفوس وما ذلك على حد قولهم، إلا لأته سلك مسلك التوفيق بين
التصوف وأصول الفقه^(٦٦)، بيد أن دعوات الغزالي ومناصريه، ذهبت أدرج الرياح بعد
قرنين من الزمان، فقد طغت على التصوف في المغرب الصيغة النظرية والعجائب
والغرائب والحديث عن الخوارق والكرامات والتفسير الاشاري للقرآن.

- (١) محمد الطيب، فقه التصوف (دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى . ٢٠١٠م)، ص١٠٨.
- (٢) ابن قنفذ، أبو العباس بن احمد الخطيب القسنطيني(ت٨١٠هـ)، أنس الفقير وعز الحقيير(منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط . ١٩٦٥م)، ص٤.
- (٣) كتاب اللمع،(القاهرة . ١٩٦٠م)، ص٣٣.
- (٤) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي(ت٧٩٣هـ)، الموافقات في اصول الشريعة، بيروت، دار لمعرفة، الطبعة الثامنة، ١٩٧٥م، ج٤، ص٢٦٨.
- (٥) ابن قنفذ، المصدر نفسه، ص٢٦.
- (٦) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص٧-٨.
- (٧) المصدر نفسه، ص٢٣.
- (٨) المصدر نفسه، ص١٣.
- (٩) المصدر نفسه، ص٤.
- (١٠) ترجمته في ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي(ت٦١٧هـ) التشوف إلى رجال التصوف(الرباط، الطبعة الثانية . ١٩٩٧م)، ص٤٠٣.
- (١١) ترجمته في ابن الزيات، المصدر السابق، ص٢١٣-٢٢٢، ابن القاضي، جذوة الاقتباس في تاريخ مدينة فاس، ص٣٥٤.
- (١٢) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص٦٨.
- (١٣) ترجمته في ابن الزيات، المصدر نفسه، ص١٩٩.
- (١٤) ابن قنفذ، المصدر نفسه، ص٣٠.
- (١٥) محمد بن الطيب، فقه التصوف، ص١١٢.
- (١٦) محمد بن الطيب، فقه التصوف، ص١١٣.
- (١٧) المصدر نفسه، ص١١٤.
- (١٨) الشاطبي، المصدر السابق، ج١، ص٣٥٧.
- (١٩) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧٦.
- (٢٠) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص٩٣.
- (٢١) ابن قنفذ، المصدر السابق، ص٢٣، نقلا عن ابن الزيات، المصدر السابق، ص٣٣٨.
- (٢٢) ترجمته في ابن الزيات، المصدر نفسه، ص١٦٨-١٧٣.
- (٢٣) وهي الحي الشرقي لمدينة فاس، نزل فيها الوافدون من بلاد الأندلس (أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ) المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب(الطبعة الأوربية . ١٨٥٧م)، ص١١٥.

مقدمة فى دراسة كرامات المتصوفين المغاربة وخورقهم

(٢٤) القسم الغربي من مدينة فاس، نزل فيها الوافدون من مدينة القيروان الجزائى، أبو الحسن علي بن احمد(ت أواخر القرن الثامن الهجرى)، زهرة الآس فى بناء مدينة فاس،(الجزائر .١٩٢٣م)ص١٩-٢٠.

(٢٥) وهو يخلف بن خرز الأوروبى(ت٥٧٨هـ) ترجمته فى ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسى(ت٧٢٦هـ)، الأنيس المطرف بروض القرطاس (الرباط . المطبعة الوطنية)، ص٢٦٨، ابن القاضي، أبو العباس احمد بن محمد (ت٩٠٠هـ)، جذوة الاقتباس فىمن حلّ من الأعلام بمدينة فاس(طبعة حجرية فاس . ١٨٩١م)،ص٥٦١.

(٢٦) ابن قنفذ، المصدر نفسه،ص٢٣.

(٢٧) ترجمته فى: ابن القاضي، المصدر السابق،ص٦٠٩، ابن مخلوف، محمد بن احمد بن محمد (ت القرن العاشر الهجرى)، شجرة النور الزاكية(بيروت . ١٩٣٠م)، ص١٦٤، التنبكتي، أبو العباس محمود بن احمد بن عمر(ت٩٥٥هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج(مصر . ١٩٣٢م)، ص١٢٧، ابن الزيات، المصدر السابق،ص٣١٩-٣٢٩.

(٢٨) ترجمته فى ابن الزيات، المصدر نفسه،ص٣٣١-٣٣٢.

(٢٩) ابن قنفذ، المصدر السابق، الوفيات(منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت . ١٩٨٣م)،ص٢٩٧-٢٩٨.

(٣٠) ترجمته فى ابن الزيات، المصدر نفسه،ص٣٣١-٣٣٢.

(٣١) ابن قنفذ، المصدر نفسه،ص١٠٠.

(٣٢) الموافقات فى أصول الشريعة، ج٤، ص٢٩٢.

(٣٣) أبو طالب محمد بن عبد الواحد المكي(ت٣٨٨هـ)، قوت القلوب (القاهرة . ١٩٣٢م)، ج٢، ص٣٥.

(٣٤) قوت القلوب، ج٢، ص٣٥.

(٣٥) الرسالة القشيرية(تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد سلطة جي، بيروت، دار الجيل، الطبعة الثانية . ١٩٩٠م)،ص٣٧.

(٣٦) أبو زيد طيفور بن عيسى البسطامى(ت٢٦١هـ/٨٧٥م).

(٣٧) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلى(ت٣٣٤هـ/٩٦٦م).

(٣٨) أبو سعيد بن أبي الخير الخراسانى(ت٤٤٠هـ/١٠٤٩م).

(٣٩) أبو بكر محمد بن علي بن محمد الطائى الحاتمي المعروف بابن عربي، (ت٦٤٨هـ/١٢٤٠م)، فهم العامة، الجملة على ظاهرها،فتقلوه وباطن الجملة، أن الناس يبعدون المال.

(٤٠) السهروردي، شهاب الدين بن حبش المعروف بالمقتول أو الحكيم المقتول بقلعة حلب(ت٥٨٧هـ).

(٤١) ابن قنفذ، المصدر السابق،ص٣٨-٣٩.

- (٤٢) المصدر نفسه، ص ٣٩.
- (٤٣) التشوف إلى رجال التصوف، ص ٣٢٦-٣٢٧.
- (٤٤) المصدر نفسه، ص ٣١٩.
- (٤٥) محمد الطيب، المصدر السابق، ص ١٠٨.
- (٤٦) المصدر نفسه، ص ١٢٣.
- (٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٤.
- (٤٨) الشاطبي، الموافقات، ج ٢، ص ٢٧٦.
- (٤٩) التشوف إلى رجال التصوف، ص ٤٢٠-٤٢١.
- (٥٠) المصدر نفسه، ص ٣٣٠.
- (٥١) المصدر نفسه، ص ٤٢١.
- (٥٢) محمد بن الطيب، المصدر السابق، ص ١٤٥.
- (٥٣) ابن قنذ، المصدر السابق، ص ٣.
- (٥٤) ترجمته في ابن الزيات، المصدر السابق ص ١٦٨-١٧٣، الأئيس المطرب، ص ٢٦٥، ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص ٥٠٨، التبتكتي، نيل الانبهاج، ص ١٨٢، الناصري السلوي، الاستقصا لأحوال المغرب الأقصى، ج ٢، ص ٢٠٦.
- (٥٥) وهو أشهر ما وقع الإجماع على مكانته في التصوف بالمغرب، ابن الزيات، المصدر نفسه، ص ٢١٣-٢٢٢، ابن القاضي، المصدر نفسه، ص ٥٦٤.
- (٥٦) ابن قنذ، المصدر نفسه، ص ٢٥.
- (٥٧) المصدر نفسه، ص ٣.
- (٥٨) محمد بن الطيب، المصدر السابق: ص ٣٣.
- (٥٩) عزت عطية، البدعة، تحديدها وموقفها من الإسلام، ص ١٥٧.
- (٦٠) ابن الزيات، المصدر السابق، ص ٣١٩.
- (٦١) المصدر نفسه، ص ٢١٣.
- (٦٢) المصدر نفسه، ص ٤٥١-٤٧٧.
- (٦٣) المصدر نفسه، ص ١١٨-١٢٣.
- (٦٤) أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق جميل صليبا، وكامل عياد، (بيروت . دار الاثندلس ١٩٨١م)، ج ١، ص ١٣٩.
- (٦٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٢، عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي في أيام ابن خلدون (دار العلم للملايين، ١٩٨١م)، ص ٥١٢-٥١٣.
- (٦٦) محمد عابد الجابري، فكر الغزالي، مكوناته وتناقضاته (المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ١٩٨٨م)، ص ١٦٩-١٧٠.

قائمة المصادر :

١. ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت ٧٢٦هـ)، الأئيس المطرف بروض القرطاس (الرباط . المطبعة الوطنية).
٢. ابن الزيات، أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي (ت ٦١٧هـ) التشوف إلى رجال التصوف (الرباط، الطبعة الثانية . ١٩٩٧م).
٣. ابن القاضي، أبو العباس احمد بن محمد (ت ٩٠٠هـ)، جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام بمدينة فاس (طبعة حجرية فاس . ١٨٩١م).
٤. ابن القاضي، أبو العباس احمد بن محمد المكناسي (ت ١٠٢٥هـ/١٦١٦م)، جذوة الاقتباس في تاريخ مدينة فاس، المكتبة العتيقة، (تونس . ١٩٧٤م).
٥. ابن قنفذ، أبو العباس بن احمد الخطيب القسنطيني (ت ٨١٠هـ)، أنس الفقير وعز الحقير (منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط . ١٩٦٥م).
٦. ابن مخلوف، محمد بن احمد بن محمد (ت القرن العاشر الهجري)، شجرة النور الزاكية (بيروت . ١٩٣٠م).
٧. أبو الحسن علي بن احمد (ت أواخر القرن الثامن الهجري)، زهرة الآس في بناء مدينة فاس، (الجزائر . ١٩٢٣م).
٨. أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال، تحقيق جميل صليبا، وكامل عياد، (بيروت . دار الاندلس ١٩٨١م).
٩. أبو طالب محمد بن عبد الواحد المكي (ت ٣٨٨هـ)، قوت القلوب (القاهرة . ١٩٣٢م).
١٠. أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ) المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب (الطبعة الأوربية . ١٨٥٧م).
١١. التتكتي، أبو العباس محمود بن احمد بن عمر (ت ٩٥٥هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج (مصر . ١٩٣٢م).

١٢. الرسالة القشيرية، تحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد سلطة جي، (بيروت، دار الجبل، الطبعة الثانية. ١٩٩٠م).
١٣. الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي (ت٧٩٣هـ)، الموافقات في اصول الشريعة، بيروت، دار لمعرفة، الطبعة الثامنة، ١٩٧٥م.
١٤. عزت عطية، البدعة، تحديدها وموقفها من الإسلام، دار الفكر العربي، ط١، (بيروت. ١٩٩٩م).
١٥. عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي في أيام ابن خلدون (دار العلم للملايين، ١٩٨١م).
١٦. السراج، أبو نصر (ت٣٧٨هـ/٩٨٨م)، كتاب اللمع، (القاهرة. ١٩٦٠م).
١٧. محمد الطيب، فقه التصوف (دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى. ٢٠١٠م).
١٨. محمد عابد الجابري، فكر الغزالي، مكوناته وتناقضاته (المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ١٩٨٨م).
١٩. الناصري السلاوي، أبو العباس احمد بن خالد (ت١٣١٥هـ/١٨٩٧م)، الاستقصا لأحوال المغرب الأقصى، (الدار البيضاء، ١٩٥٤م).
٢٠. ابن قنفذ، أبو العباس احمد بن حسن بن علي بن الخطيب القسنطيني (ت٨١٠هـ)، كتاب الوفيات، منشورات دار الآفاق الجديدة، (بيروت. ١٩٨٣م).